فلسفة اللّغة: من التحليليات إلى التداوليات

أ. بلقناديل عبد القادر/ جامعة تلمسان

منذ الأصول الإغريقية للفلسفة، كان الإهتمام باللّغة موضوعا مركزيا، أين أثيرت الكثير من "المشكلات" التي ما يزال بعضها قائما إلى يومنا هذا.

يومها ظهرت عبارة "فلسفة اللّغة" وقد كانت تشير إلى كل فعل تأملي في القضايا العامّة التي تطرحها اللّغة الإنسانية من حيث هي موضوع بحث نظري. بل هناك من ذهب إلى القول بأن الموضوع يشمل كافّة الأنظمة الإتصالية التي يستعملها الإنسان من حيث هو كائن ثقافي.

إلا أنّه ينبغي الإحتراس من "تعريف" لفلسفة اللّغة ضيّق ومحدّد.[1] فكل محاولة لحصر هذه العبارة قد تحجب خصائص مميّزة أو تقطع أبعادا ملازمة لهذا الإشتغال على اللّغة باعتباره اختصاصا نظريا يقع على نقطة تقاطع طرق متعدّدة ومقاربات مختلفة:

- اختصاصات فلسفية: المتافيزيقا، الإبستمولوجيا والمنطق
- اختصاصات علمية: اللّسانيات، السيميائيات.

لقد طرحت مشكلة اللّغة على الفلسفة مباشرة عندما أخذ التفكير يتكامل باعتباره تدبّريّة في الحقيقة والوجود. في محاورة Théetéte ومحاورة Sophiste، يستدرك (أفلاطون- Platon) بأنه عند النطق باسم وفعل داخل الجملة، ذلك ما يسمح بقول الخطأ وبالتالي الكلام عما هو لا وجود.

منذئذ فإن تاريخ الفلسفة برمّته، سيطبع باستفهامات تخص الرابطة بين اللّغة والواقع، اللّغة والحقيقة.

وقد استعيد السّؤال خلال العصر الوسيط ثم المرحلة الكلاسيكية إلى غاية القرن XX.

تطرح فلسفة اللّغة على نفسها عدّة أسئلة، من بينها:

- ماذا تكون اللّغة بالضبط؟ عن أي شيء تقول وتتكلّم؟ كيف ترتبط بالفكر والعقل؟ هل هي مجرّد أداة تواصل؟

هنا تعمد الفلسفة إلى اقتراح عدّة إجابات، وقد ورد –مثلا- أن اللّغة تقول الوجود وتتكلّم عن العالم. لكن رأى آخرون، أن اللّغة لا تتكلّم سوى عن ذواتنا نحن عن ذاتيتنا نحن البشر، وذهب طرف آخر إلى الإقرار بأن اللّغة لا تتكلّم عن أيّ شيء خارجها! إنّها تقول وفقط!

[1] Langage (philosophie du); Encyclobédie de la philosophie, p914

بالإحاطة قدر الإمكان بهذا التشعب، ذهب عدد من المختصّين[1]في تاريخ فلسفة اللّغة والفكر اللّساني إلى محاولة وضع أبعاد تحديدية يكون الهدف منها جمع شتات التصوّر ورفع الغموض عنه.فلفلسفة اللّغة عند هؤلاء معنيين اثنين هنا:

– الأول: هو أنّ فلسفة اللّغة هي كل تفلسف جاء "بمناسبة اللّغة" أي كل دراسة تتناول اللّغة باعتبارها موضوعا "خارجيا"[2]يفترض أنه معروف وأمره مفروغ منه.

هنا تعطى لنا **الدلالة الأولى** عن التصوّر، هذا الذي يجرى فيه بحث العلاقة بين اللّغة والفكر، أيّهما أسبق في الوجود؟ وما هي حقيقة التفاعلات التي تشهدها إلى بعض؟

في هذا الاطار، ظهر تيار فلسفي مثاليّ Idealiste كامل، طبع الفلسفة الفرنسية مع بداية القرنXX، وقد توصّل فلاسفة بفضل تحليلاتهم اللّغوية إلى أبطال أوهام واحدة من أهمّ الرؤى المتافزيقية الكلاسيكية وهي الجوهرانيةSubstantialisme فقد أثبتوا[3]إن مقولة "الجوهر" ما هي سوى وهم نتج عن علمية تبلور المعنى في الكلمة المتحجرة. وعليه لا وجود لأعيان معطاة ولا أوضاع قارّة كما كان يُعتقد.

الدلالة الثانيةالتصوّر هي أيضا تقوم على اعتبارات "خارجية" أو برانية، إنّها تلك الدراسات الحاضرة بقوّة ضمن الفلسفة الألمانية خلال القرن XIXتتعلق بدور اللّسان Langage في تاريخ الإنسانية.

في هذا الإطار يمكن إدراج فلسفة اللّغة الهيغلية التي حاول روادها فهم ظاهرة "تدهور اللّسان عبر التاريخ". لقد حاول هؤلاء تأويل هذه الحادثة بناء على أن الإنسان التاريخي يكون قد اتّجه إلى تبنّي المنحى الاستعمالي للّغة، أنها تسمح له بالفعل والتأثير في الغير بطريقة دائمة ومتواصلة. ذلك ما يطلق عليه عبارة "تأسيس التاريخ" الملاحظ هنا، أنّه فقط خلال حقبة ما قبل التاريخ كان الانسان يولي اهتماما باللّغة في حدّ ذاتها وبذلك جعلها على هذا النحو تصل إلى كمالها المحايث لها.

أما **الدلالة الثالثة**فهي ناتجة عن حملة الإيحاءات التي أثارتها "الفلسفة البنيوية"[4] التي تطورت في فرنسا إبتداءا من سنة 1960 وذلك في إطار ما أطلق عليه النشاط اللّغوي.

يعتبر الفيلسوف (ميشال فوكو –Michel Foucault) من أبرز الفلاسفة[**]الذين تمثّلوا هذه الرّؤية وابدعوا فيها من حيث هي وجه من وجوه فلسفة اللّغة المعاصرة.

---

[1] Oswald Ducrot, Jean_MarieSchaffer; Nouveau dictionnaire encyclopédique des Sciences de langage p.p241.

[2]Eric Grillo= La philosophie du langage -4-

[3]L. Brunschwicg, les Ages de l'intelligence - 1947

[4]Philosophie structuraliste

لقد كان هذا الفيلسوف يتساءل قائلا: كيف لنا أن نصف ونميّز المعرفة المشتركة التي تخصّ عصرًا ما ؟

لقد كان الطرح المعمول به عادة للإجابة عن هذا السّؤال يتمثل في "ضرورة القيام بجمع المعلومات التي يقدّمها هذا العصر عن العالم" أي جملة المعلومات حول الرّؤية الكونية. إلا أن (فوكو) يشكك في هذا الطرح ويعمد إلى تجنّبه مشيرا إلى تصوّر الابستيميL'epistémé الذي يعني ذلك التنظيم الدّاخلي للمعرفة، الصّورة المشتركة التي تتّخذها مهما كان المجال الذي تنطبق عليه.

ومن خصوصيات هذا الإبستيمي أنه متغيّر من عصر لآخر عن طريق تحوّلات متقطعة.

– **الثاني**:يشير إلى أن طريقة أخرى ممكنة بالنسبة للفيلسوف الذي يهتم باللّغة، تتمثل في إخضاعها لدراسة "داخليّة"[1] تتناول اللّغة في حدّ ذاتها كموضوع بحث واستقصاء. هذا ما يطلق عليه الفلسفة التحليلية، إنها فلسفة في اللّغة نمت وتطوّرت في أوربا خلال الثلث الأوّل من القرن xx.

تحيط فلسفة اللّغة بالمعنى التحليلي إلى وقائع متباينة:

أ. إنّها أولا فلسفة تحليلية للغة بالمعنى الذي يهبه المنطق لكلمة التحليل، على الخصوص انطلاقا من أعمال كل من (برتراندراستل 1872-1970) وأولى محاولات (لودفيج فون فتجنشتين 1889-1951)
إنها فلسفة تستلهم الرّؤية الوضعية للمعرفة. لقد وجهت بحوثها على الخصوص نحو دلالة اسم العلم ثم اتجاه شروط تحقيق القضايا باحثة عن خصائص كلية للغة انطلاقا من الملاحظة الموجهة نحو اللّسان الطبيعي.

ب. إلا أنّ عبارة فلسفة تحليلية، تنطبق في أغلب الأحيان على تيّار نما وتطوّر في إنجلترا انطلاقا من الفلسفة الثانية ل (فتجنشتين)، قام هذا التيار على رفض المنطق الصّوري في دراسة اللّغة، وقد أعاد توجيه التدبّر الفكري نحو اللّغة المتداولة المستعملة بهدف استخراج خصوصياتها المميّزة عن طريق التركيز على وظيفتها داخل عملية الإتصال.

**كتاب (ميشال فوكو)، حضريات المعرفة l'archeologie du Savoir يتخذ فيه الخطاب العلمي لكل عصر باعتبارها موضوعا يتم وصفه بعيدا عن المحتوى الذي يتضمّنه. هنا لم يعد الأمر يتعلق بتجديد معنى العبارات... إنما الجدير بالدراسة هو تلك الترابطات تتكون فيما بينها... حتى يتكوّن نظام للخطاب مستقبلا عن موضوعه المادي.

[1]Eric Grillo = la philosophie du langage, p.5

ما هيّ قضية التّأويل ؟

لما كانت الفلسفة هي دراسة المسائل الأساسية التي قد تكون، حسب (كانطKant) ثلاثة رئيسية:

_ ما في استطاعتنا معرفته

_ ما يجب علينا القيام به

_ ما في استطاعتي أن آمله

فالملاحظ أنّ المسألتين، الأولى والثانية اللتان تتعلقان بمعرفة الواقع والفعل (أي التصرّف) الإنسانيين، من غير المعقول فكّهما عن بعض أو فصلهما عند الدّراسة.

لقد وضعت الهرمنوتيقا* باعتبارها صناعة أو فنّ للتأويل خصوصا ما تعلق بالنّصوص المقدّسة والكتابات العتيقة.

فالنصُّ لا يفصح عن معناه الدّغين سوى لئلئك الّذين يجاهدون في سبيل حلّ شفرته متجاوزين بذلك المعنى الأول لبلوغ واكتشاف المعنى المخبوء.

اليوم، تحيل هذه التّأويلية** إلى مواضيع شتَّى، الموسيقار الرسّام، المغنّى، الممثّل جميعهم يؤولون، مقطوعات موسيقية تشكيلية أو مسرحية... كما أنّ التحليل النفسي الفرويدي يقترح هوّ بدوره منهجا في تأويلية الأحلام... الاضطرابات إلخ.

على هذا تبدو التأويلية خاضعة للذاتية ومعرضة لغموض الانطباعات الشخصية المتقلبة خصوصا إذا ما قابلناها مع البرهنة*** والتفسيرية العلمية الموضوعية...

إلا أنّ واقع الحال وعبر نظرة أكثر انفتاحا ونقدية، يثبت لنا أن التأويلية لا تقل معقولية وتماسكا عن غيرها من الرؤى المضبوطة والمحكمة.

إن المجتمعات اليوم، إثر الأزمات المتوالية وأفول الأصنام الذي أصبح مشهدا يطال كافة المعتقدات، القيم، والمقدسات....

* L'Herméneutique

** L'interpretation

*** Démenstration _Explication

بدأت تستشعر أهمية الحاجة إلى التأويلية... إعادة النظر في... أو مراجعة هذه القيمة أو طلب إعمال الاجتهاد العلمي في النصوص.

فالإنسان ما هو سوى مغامر باحث عن المعنى :

معنى كيانه في هذا العالم، معنى التاريخ الذي يتدفّق به في الزمن؛ معنى كل هذه الاستكشافات العلمية والاختراعات التكنولوجية البارعة، معنى العمل الذي يجب أن يقوم به... ولأنّنا بدأنا نشعر بالخطر لذلك لابدّ من التأويلية.

لا مفرّ من أخذ تصوّر التأويلية عبر وجوه شتّى، هذه التي حصرها الفيلسوف الفرنسي (جان غراندان_ Jean Grondin) في خمسة[1] سياقات متباينة :

1_ التأويلية الفيلولوجية

2_ التأويلية الفنيّة

3_ التأويلية الترجمية

4_ التأويلية القانونية

5_ تأويلية حضورنا في العالم

لطالما بحث الفلاسفة عن معنى العالم داخل المعرفة، وقد أكّد (غاليلي Galilée) و(ديكارت Descartes) أن ذلك ما يتحقّق عبر العلم الريّاضياتي.

إلا أنّ العلم يحدّثنا عن كيفية سريان أشياء الطبيعة وليس عن غاياتها أو لماذا تكون على هذا النحو بالذات. لذلك فحل شفرة العالم، الاطلاع على أسراره، جميع ذلك لأي غرض أو هدف؟ ألا يكون ذلك من أجل التغيير؟

تلك هي إذن فكرة (ديكارت) ولذلك يوصف بفيلسوف الحداثة. فقد كان قيامه أمام العالم قيام ذلك الذي يريد إمتلاك زمام المادّة لأجل تحسين ظروف حياة الانسان. منذئذ استطاعت التقنية أخذ الريّادة. لقد أصبح العلم الغربي إجرائيا انطلاقا من مشروع (ديكارت). وقد كان هدفه المعرفة، التفسير، الفهم، التنبؤ والتحكم في سير الواقع برمّته.

مع (هيغل _ Hegel) يميل الاهتمام بالتأويلية تجاه بعد أكثر شمولية وتجريد وأغنى رمزية، ففي العالم "روح يسري"، ويجب أن نفهم "كل معقول واقع، وكل واقع معقول". لا شيء يستحق المعرفة عدا المطلق، الذي هوّ الكلّ. تثبت الجدلية الهيغلية كيف ينبغي التفكير بطريقة نسقية متجاوزين التناقضات. إلا أنّ تأويل العالم، يعني في هذا المقام، أن يظل الإنسان "متفرّجا" بل إنه لعبه في يد العقل الأعظم La Raison الذي يتحايل في تحقيق مصيره. وعليه فما تسمح به تأويلية اليوم هو أن يصبح هذا الإنسان فاعلا مؤثرا في سير التاريخ.

في عالمنا المعاصر، تحيط كلمة تأويلية ينطاق أكثر اتساعا وغنى مما كان بعيّنه فلاسفة العصر الحديث. لقد فتح (نتشه Nietzsche) المجال واسعا لتأويلية بلا نهاية، "لا وجود لأحداث، ثمة تأويلات فحسب[2]" وعليه لا

---

[1] http://www.mapageweb.umoreal.ca/grondinj/textes_htm/interpretation.pdf (consult 23 03 2012)

[2] F.Neitzsche ; la volonté de puissance N 48

يستطيع الإنسان أن يعيش من دون تأويل ولو بالقدر القليل. هذا ما يطلق عليه فلاسفة العصر "تأويلية حضورنا في العالم"[1].

نالت "صورة" التأويلية هذه اهتمام الفلاسفة، مع أنها الأصعب على التحديد من بين الأخريات، فهي تطمح إلى الكونية وتريد ضم الكيان الإنساني بجميع أبعاده. إلا أن أهم خصائصها تتمثّل في أنها تعترف هي بدورها أنها مجرّد تأويل وبذلك فهي تكسر الحلقة الدوغمائية التي عادة ما يقع فيها فلاسفة المعرفة.

فما معنى أن تكون كل رؤية عبارة عن تأويلية ؟

ـ المعنى الأيديولوجي: كل رؤية للعالم، تكون موجهّة بواسطة رهانات ومصالح.

ـ المعنى المعرفي: ليس ثمّة معرفة للعالم من دون خطاطات ذهنية مسبقة تؤسّس وتقود جهازنا الإدراكي.

ـ المعنى التاريخي: كل تأويلية للعالم هي نبت زمانها، نماذجها المعرفية وتراتبياتها القيمية.

إلا أن التأويلية اليوم، غالبا ما يجري فهمها انطلاقا من اللغة Le Langage. اللغة هي الحافظ لتأويلية بكاملها عن العالم وهي تشكل الرّحم المولّد لكافة التأويليات. وبهذا تكون هذه الطريقة الجديدة في التفلسف قد فرضت نفسها باعتبارها المجال البحثي الحاسم والكوني لعملية التدبر الفلسفي.

[1]J.Grondin